مجلة الدراسات الإسلامية، المجلد 35، العدد (2)، ص ص 53 - 78، الرياض (2023م/ 1444هـ)

عِمارة الكون بين الرُؤيتين التوحيديّة والإلحاديّة، دراسة نقديّة

فتح الرحمن يوسف عمر أبوعاقلة[1]

جامعة المجمعة

(قدم للنشر في 21/ 05/ 1445هـ؛ وقبل للنشر في 07/ 10/ 1445هـ)

المستخلص: عبر رؤية التوحيد والإلحاد الكونيّة تناول البحث بالنقد قدرتها لعِمارة الكون، ويهدفُ البحثُ لبيان إمكان الرؤية التوحيديّة لعِمارة الكون وفق مفهوم شامل للعِمارة الماديّة والمعنويّة، بخلاف عجز الرؤية الإلحاديّة عن عِمارة الكون وتهيئته للحياة الإنسانية الطيبة، وعلة ذلك فساد تصورات الإلحاد عن الله والكون والحياة والإنسان، واتّبع البحث المنهج الوصفي الاستقرائيّ والنقديّ، وخَلُصَ إلى أنّ التوحيد متفرد برؤيته في عِمارة الكون، وقد قامت رؤيته على قواعد ربانيّة تمثلت في: العبودية، والغائية، والشمول، والوضوح، والثبات، وموافقتها للعقل الصحيح والفطرة السليمة، وقد تبيّنت قدرة عقيدة التوحيد على تأسيس رؤية ربانيّة لعِمارة الكون، لها خصائصها الفريدة والمميزة لها، وعجز الإلحاد عن ذلك، ويُوصِي الباحث بأهميّة بناء المفاهيم والأفكار في حياة المسلم على عقيدة التوحيد، فهي القادرة على كفاية جميع الحاجات الإنسانية في الدنيا والآخرة، ويوصي البحث بأهميّة نشر الوعي بما يحمله الإلحاد من إفساد للحياة والنفس الإنسانية، وما قد يلحقه بأهل الإيمان من انحراف فكريّ، ثمّ الاعتماد على البناء العقدي الصحيح للمسلم، حصانة له منْ سيل الأفكار الهدامة المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: التوحيد، العمارة، الكون، الإلحاد، الرؤية.

The Architecture of the Universe between Monotheistic and Atheistic Perspectives- A Critical Study

Fathulrahman Yusuf Omar Abu Aqilah[1]

Majmaah University

(Received 05/12/2023; accepted for publication 16/04/2024.)

Abstract: This research critically examines the capacity of monotheistic and atheistic cosmic perspectives in understanding the architecture of the universe. The study aims to highlight the potential of the monotheistic perspective in comprehending the architecture of the universe based on a comprehensive concept that includes both material and spiritual aspects. This is in contrast to the inadequacy of the atheistic perspective in explaining the architecture of the universe and its suitability for human life. The research argues that the flaws in atheistic perceptions stem from distorted views on Allah, the universe, life, and humanity, the research adopts a descriptive, inductive, and critical methodology and concludes that monotheism stands alone in its vision of the cosmic architecture. This vision is based on divine principles that include servitude, purpose, inclusivity, clarity, and fortitude, aligning with sound reason and natural disposition. The researcher emphasizes the importance of building concepts and ideas in a Muslim's life based on the monotheistic creed, as it is capable of fulfilling all human needs in both the worldly life and the hereafter. The research recommends the importance of raising awareness about the corrupting influence of atheism on life and human psyche, which may lead believers to deviate intellectually, then relying on a sound creedal foundation for Muslims as a safeguard against torrent of contemporary destructive thoughts.

Keywords: Monotheism, Architecture, The Universe, Atheism, Perspective.

---

(1) أستاذ مشارك، قسم الدراسات الإسلامية كلية الشريعة والقانون، جامعة المجمعة، وكلية التربية حنتوب، جامعة الجزيرة - السودان.

البريد الإلكتروني: e-mail: f.omer@mu.edu.sa

(1) Associate Professor, Department of Islamic Studies, College of Sharia and Law, Majmaah University, College of Education, Hantoub, University of Al Jazira, Sudan.

مقدمة البحث

الحمدَ لله الذي أتمّ نعمه وأكمل الدين، وصلى الله على نبينا محمد ﷺ بلّغ الأمانة وتركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلّا هالك، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، أمّا بعد:

تتفرد عقيدة التوحيد بمنهج كافٍ فاعل حاوٍ لأنواع النشاط الإنساني، مشكِّلةً هُويّة المسلم القادر على عِمارة الحياة الدنيا والعمل للحياة الآخرة معاً، وقد بيّن الله تعالى ذلك للملائكة حين تعجبت من مراده تعالى في خلق الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]. يقول صاحب التفسير المنير: «اذكر يا محمد لقومك قصة خلق أبيهم آدم، حين قال الله للملائكة: إني متخذ في الأرض خليفة، يقوم بعِمارتها وسكناها، وينفِّذ أحكامي فيها بين النّاس، وتتعاقب الأجيال من بعده في مهامه كلها حتى يعمر الكون»[1].

وإنّ واقع الحياة اليوم شرقاً وغرباً يُبيّن عجز المدارس الوضعية في تلبية حاجة الفرد لحياة كريمة حرّة، رغم أنها حققت النجاح في ميادين الحضارة المادية، فقد أثبتت فشلها الذريع في عمارة الكون وفق مراد الله تعالى، لا سيما وأنّ إنسان اليوم يزداد بُعداً عنْ الله تعالى يوماً بعد يوم؛ حتى أيقن بعضهم بقيام الكون دون خالق موجد، فغاب عنهم مفهوم الإعمار الرّباني الذي يربط بين العمارة الماديّة والعمارة الشرعيّة؛ كما في قوله ﷺ: (الإِيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ)[2] جمع بين الإيمان والعمارة في إماطة الأذى عنْ الطريق.

تتشكل رؤية الإسلام لكل نظام على عقيدة التوحيد التي تصوغ التصور الإسلامي الكلي ومقوماته، وتمنح نموذجاً كلياً يجيب عنْ الأسئلة النهائية، فتقدِّم للبناء المعرفي الإجابات المهمة والمحيرة عن الكون والإنسان والحياة، والغاية من خلق كلٍ ومصير كلٍ وكنه وماهية كلٍ، وعلاقتها ببعض وعلاقتها بخالقها، هل هي علاقة انسجام أم أنها علاقة تنافر وتضاد؟...الخ. لذا فالعقيدة تفسر كل ذلك تفسيراً يوصل إلى اليقين التام، وبالتالي تخلق أرضية قوية تنشأ وتتولد عنها نماذج معرفية لكل أنواع النشاط الإنساني.

وإنّ أي بناء حضاري للأمم يعود بالأساس إلى نظمها العقدية، لأن العقيدة إنّما هي المحرك الرئيس والحقيقي لتكوينها الفكري ونموها الحضاري، كما أنّها دعامة رؤيتها الكلية للحياة والكون وقاعدة صياغتها للإنسان، وهي تمثل أساس تكوينها المعرفي للوجود، وتمنحها الفاعلية لأداء الخلافة والعمران وحسن الصلة بالكون والوجود كله، كما تجعل لوجوده غاية وهدفاً ومنهجاً للتعامل مع كل الموجودات، لذا فمن الضروري

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص136).

(2) صحيح مسلم، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، حديث رقم (80).

إعادة النظر في القصور المنهجي لصلة المسلم بالكون لإعماره وفق معطيات العقيدة الإسلامية، أداءً لرسالته الكونية والحضارية المرجوة.

وتتخذ رؤية عمارة الكون في الإسلام من التوحيد منطلقاً لها فالكون له خالق واحد، خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، لا كفء له ولا مثيل، علم الإنسان وجعله خليفة في الأرض.

موضوع البحث:

يعرض البحث لمسألة عِمارة الكون بالنقد اللازم لبيان عجز العقل الإلحادي وكونه جهداً بشرياً يبتغي إقصاء الاعتقاد بوجود الله تعالى ويسعى لتأسيس مفهوم شامل لحياة الإنسان، مع بيان القدرة التامّة لعقيدة التوحيد لعِمارة الكون، عمارة ربانيّة متوافقة مع الغاية من خلق الإنسان ومصيره، وجامعة للعمارة المعنوية والحسيّة وعمارة الدنيا والآخرة.

مشكلة البحث:

– ما هو مفهوم عِمارة الكون وفق رؤية عقيدة التوحيد؟ وهل لها رؤية حقيقيّة لعِمارة الكون اعتماداً على التوحيد الخالص لله تعالى؟ وما هي أهم ركائز هذه الرؤية وما يميزها عن غيرها منْ المحاولات البشريّة؟.

– هل يملك الإلحاد مفهوماً جامعاً لعِمارة الكون؟ ما هي أوجه قصوره في المفهوم والرؤية؟ وهل له قدرة حقيقيّة فاعلة متوافقة والغاية من خلق الإنسان على بناء رؤية لعِمارة الكون؟.

حدود البحث:

– ما يعرضه البحث منْ النظريات والحقائق الفيزيائية يهتم البحث فيها بالبُعد الفكريّ إمّا في تدعيم الحقائق الإيمانيّة وتثبيتها، أو نقد القواعد الإلحاديّة.

– ليس منْ مهمات البحث الأساسيّة الرد على الأفكار الإلحاديّة أو التصدي لها تفصيلاً إلا بقدر ما يختص بمسألة دعم الفكرة البحثية لموضوع الرؤية التوحيديّة أو الإلحاديّة للإعمار الكونيّ.

أهداف البحث:

– تمييز فاسد الاعتقاد والفكر وصالحه، وتأكيد قدرة أو عجز ما قام عليه من رؤى مقبولة أو مردودة.

– مواجهة الإلحاد لكشف جوهره وحقيقة فساد تصوراته وبذلك تبطل شبهات المتأثرين به من أبناء الإسلام.

– تأكيد حتمية قيام كل مناشط الحياة على المنهج الإلهي لصلاح الحياة الدنيا ونيل الثواب في الآخرة.

– مناظرة الإلحاد بعرض ونقد رؤيته وصولاً لليقين بما جاء به الوحي، أداءً للأمانة، يقول شيخ الإسلام: «فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين»[3].

(3) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد السلام ابن تيمية، (20/ 164-165).

منهج البحث:

– هو المنهج الوصفي الاستقرائيّ والنقديّ بجمع الآيات والأحاديث لبيان الرؤية التوحيدية، وتتبع مقالات الإلحاد للكشف عن الرؤية الإلحادية وجمع مقالاتهما عن المنهج لعمارة الكون أو العجز عنْ ذلك، بالإضافة للمنهج النقديّ ببيان أوجه القوة والعجز في قدرة التوحيد أو الإلحاد على صياغة المنهجية الكلية لعمارة الكون.

إجراءات البحث:

– تقسيم البحث إلى مباحث متعمقة في حقيقة البناء الفكري الإلحادي، ومعتمدة على قواعد الاعتقاد السليم وفق عقيدة السلف الصالح، وغاية هذه المباحث الكشف عنْ قدرة أو عقيدة التوحيد والإلحاد عنْ بناء رؤية لعمارة الكون.

– بناء الفكرة الجوهريّة الداعمة لعمارة الكون وفقاً لرؤية عقيدة التوحيد اعتماداً على القرآن الكريم والسنة الصحيحة وأقوال السلف الصالح وعلماء الأمة.

– التنقيب في الكتابات الإلحاديّة لاستخلاص ما يُمكنه أنْ يُؤسس أو يُشير إلى رؤية إلحاديّة في عِمارة الكون، أو ما يؤكد عجزه عنْ بناء متكامل حقيقي للتعمير.

الدراسات السابقة:

بعد البحث في قوائم المعلومات كانت لبعض البحوث دراستها الكونية من زوايا غير مسألة عمارة الكون – عدا الدراسة الأولى – كما أنّها لم تتطرق بالنقد للرؤية التوحيدية أو الإلحادية والدراسات هي:

– «إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي»، زياد خليل الدغامين، بحث بمجلة مجلة إسلام المعرفة العدد 54، 2008م، تناول البحث مسألة إعمار الكون كواحد من مهام الخلافة، وأنّه الضرورة القصوى للحياة، وبيّن مفهوم الإعمار وأهميته، ومفهوم الكون وعلاقة الإنسان به، مخاطر الاقتصار على المفهوم المادي، ومظاهر إعمار الكون في ضوء نصوص الوحي والرسالة، من حيث شروط الإعمار، العلم، والتفكير، واكتشاف السنن وتسخيرها ومظاهره: العناية بالبيئة والحفاظ على موارد الكون، الاقتصاد والتدبير، ولم يتعرض لصياغة رؤي توحيديّة، كما لم يتناول رؤية الإلحاد المعاصر لعمارة الكون.

– «الآيات الكونيّة دراسة عقدية» المقدمة من الباحث عبد المجيد بن محمد الوعلان، لنيل درجة الماجستير في العقيدة والمذاهب المعاصرة، تناولت الدراسة المنهج الشرعي تجاه الآيات الكونية والتفكر في الآيات الكونية وأهميته، والهدي القرآني والنبوي تجاهها، والتفسير العلمي للآيات الكونية، والدراسات المستقبلية عنها وصلتها بالعقيدة، والأسباب وصلتها بالآيات الكونية، ثمّ الآيات الكونية السماوية والأرضية ودلالتها العقدية، والآيات الكونية المتعلقة بأشراط الساعة والمتعلقة بيوم القيامة.

– «منهج القرآن الكريم في عرض الظواهر الكونية»، المقدمة من الباحثة: ليلى بنت صالح بن علي الزامل، لنيل درجة الدكتوراه في تفسير القرآن وعلومه من

قسم الدراسات الإسلامية، بكلية التربية للبنات بجدة، وقد تطرقت الباحثة إلى أسلوب القرآن في عرض الظواهر الكونيّة، وخصائص هذه الظواهر في القرآن وخضوعها وعبوديتها لله تعالى، وأهداف القرآن في عرضها ودلالة ذلك على الربوبية والملك لله والحكمة، وعلى البعث، ولم تتطرق الباحثة إلى المسائل العقدية الأخرى أو الإلحادية.

- «الفلك وعلاقته بالعقيدة في الكتاب والسنة»، المقدمة من الباحث: عبد الله بن محمد بن سعيد الأنصاري، متطلب تكميلي لنيل درجة الماجستير من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمركز الدراسات العليا المسائية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة وموضوعها عن علم الفلك ونموه خلال تاريخ الحضارات، وما يتعلق بذلك من اعتقادات فاسدة، ومقارنة بين ما جاء في القرآن والسنة عن تفسير ومراحل خلق السماوات والأرض وبين أرجح النظريات العلمية المعاصرة، وتفسير حركة الأجرام السماوية في القرآن الكريم وعلم الفلك المعاصر.

وجميع هذه الدراسات لا صلة لها بموضوع البحث الجامع بين موضوع التوحيد والإلحاد، ولم تبدي مقالة عنْ الإلحاد أو عقيدة التوحيد في سبيل تأسيس أو بناء رؤية توحيدية أو إلحادية للكون ومقدرتها أو عجزهما عنْ البناء المنهجيّ المتكامل لعِمارة الكون والحياة.

خطة البحث:

اشتمل البحث على تمهيد، ومبحثين، وتسعة مطالب، وخاتمة، وفهرس للمراجع والمصادر على التفصيل الآتي:

- **التمهيد: مفهوم عِمارة الكون بين الرؤيتين.**
- **المبحث الأول: عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيديّة للكون.**
  - المطلب الأول: عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيديّة في عبوديّة الكون لله تعالى.
  - المطلب الثاني: عمارة الكون وفق الرؤية التوحيديّة الغائيّة للكون.
  - المطلب الثالث: عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيديّة الشموليّة للكون.
  - المطلب الرابع: عمارة الكون وفقاً لوضوح وثبات الرؤية التوحديّة للكون.
  - المطلب الخامس: عمارة الكون لموافقة الرؤية التوحيدية للعقل والفطرة.
- **المبحث الثاني: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحاديّة للكون.**
  - المطلب الأول: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في نفي وجود خالق للكون.
  - المطلب الثاني: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في التفسير المادي للكون.
  - المطلب الثالث: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية أنّ الكون قديم بلا بداية وأبدي بلا نهاية.
  - المطلب الرابع: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في نفي الغائية وغياب المعنى من خلق الكون
- **الخاتمة: أهم النتائج والتوصيات.**

التمهيد

مفهوم عِمارة الكون بين الرؤيتين

في معنى العِمَارة: يقول الأصفهانيّ؛ إنّها: «نقيض الخراب: يُقال: عَمَرَ أرضَهُ: يَعْمُرُهَا عِمَارَةً، وأَعْمَرْتُهُ الأرضَ واسْتَعْمَرْتُهُ: إذا فُوّضِت إليه العِمَارَةُ»[4]. يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الروم:9]، وفي التفسير: «أولم يسر هؤلاء المكذّبون بالله، الغافلون عن الآخرة من قريش في البلاد التي يسلكونها تجرا، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذّبة، كيف كان عاقبة أمرها في تكذيبها رسلها، فقد كانوا أشدّ منهم قوّة، واستخرجوا الأرض، وحرثوها وعمروها أكثر مما عَمر هؤلاء، فأهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسلهم، فلم يقدروا على الامتناع، مع شدّة قواهم مما نزل بهم منْ عقاب الله، ولا نفعتهم عمارتهم ما عمروا منْ الأرض»[5] حيث تهدي العقيدة الإسلامية القلوب وترسِّخ فيها الربط المؤكد بين مفهومي العبادة والعِمارة ومثاله أيضاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:18]. قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: «(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ)، المصدِّق بوحدانية الله، المخلص له العبادة (وَالْيَوْمِ الآخِرِ)، يقول: الذي يصدق ببعث الله الموتى أحياءً من قبورهم يوم القيامة»[6] لذلك فإنّ الحضارة الغربية زائفة لأنّها قائمة على الماديّة والآنية؛ وإنّ منْ منتجاتها الفوضى الأخلاقيّة وتفشي الجريمة والانتحار والجنس، بخلاف الحضارة الحقيقية النابعة منْ قيم التوحيد والأمنْ وربانية الغاية والمصير.

معنى الكون: كل وجود ما عدا الله تعالى، وذلك لأن كل موجود إنّما وجوده بغيره إلا واجب الوجود الفرد الصمد: «الكون الحدَث وقد كان كوْناً وكينونة، والكائنة الحادثة، والتكوّن التحرك، تقول العرب لمن تشنؤه: لا كان ولا تكوّن، لا كان: لا خُلق، ولا تكوّن: لا تحرّك، أي مات، والكائنة الأمر الحادث، وكوّنه فتكوّن: أحدَثه فحدَث، وكوّن الشيءَ: أحدثه. والله مكوِّن الأشياء يُخرجها من العدم إلى الوجود، الكون واحد الأكوان»[7] وفي المعجم الفلسفي يعرِّف: «الكون الوجود بعد العدم»[8] كما يُعرَّفه بأنّه: «عبارة عنْ العالم من حيث هو عالم»[9].

(4) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، (ص586).

(5) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (18/ 465).

(6) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، (11/ 377).

(7) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، (5/ 148)، لسان العرب، ابن منظور، (5/ 3959- 3063).

(8) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، (2/ 248).

(9) معجم التعريفات، محمد السيد الشريف الجرجاني، (ص158).

مفهوم عِمارة الكون بين الرؤيتين:

عِمارة الكون تعني قيام نُظم الحياة الماديّة والمعنويّة هادفة لصلاح الكون والحياة والإنسان، بما يؤسس لحضارة إنسانية يكون الإنسان أساسها ويُقيم الخلافة على مراد الله تعالى في خلقه، **وعمادها عقيدة التوحيد**، فتكون عمارة الكون في التفاعل معه بتحقيق العبودية الخالصة لله تعالى، وهي عِمارة جامعة للبُعد الماديّ المعنويّ والحياة الدنيا والآخرة خلافاً لرؤية الإلحاد القائمة على سيادة الماديّة والدنيويّة والشهوانية وغياب البُعد التعبديّ الساعي لغاية راقية متحضرة، ومصير معلوم مطلوب.

وإنّ قيام رؤية عمارة الكون على منهج التوحيد سلوك عمليّ تطبيقيّ جامع لخيري الدنيا والآخرة، فإنّ العمل في الرؤية التوحيدية عبادة وترك العمل والإنتاج نقص واختلال عظيم في كمال التوحيد؛ قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:61]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله منْ الاعتقادات والعبادات والأخلاق، هذا كله مبين في الكتاب والسنة؛ فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لابد للمؤمن منه»(10).

***

المبحث الأول

عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيديّة

تقوم رؤية عقيدة التوحيد للكون على أصول عقديّة فعّالة، تقوىَ بصحيح الاعتقاد، وتضعف بضعفه، وبذلك تكون عِمارة الكون ربانيّة في مصدرها ومقصدها؛ فإنّ مسائل الاعتقاد في الكون هي الأساس الذي تنبني عليه القوة الدافعة لعمارته، وإنّ ما في الكون شاهد على وحدانية الله تعالى، وتنبني الرؤية التوحيديّة على الموجهات العقديّة التالية: العبودية، والغائية، والشمول، والوضوح، والثبات، وموافقتها للعقل الصحيح والفطرة السليمة.

- **المطلب الأول: عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيديّة في عبوديّة الكون لله تعالى.**

المراد بالرؤية التعبديّة للكون عبادة الكون لله تعالى وأنّه تحت مشيئته، وعبادة المؤمن له سبحانه، ومنْ هذه العبادة السعي لعِمارة الكون بتوفيق من الله تعالى طلباً لنيل مرضاته سبحانه، وتفصيل ذلك:

أولاً: إنّ الكون وما فيه يعبد الله تعالى، ومن عبادة المؤمن خلافته سبحانه بتعمير الكون على الوجه الذي أمر، يقول الله تعالى عن عبودية الكون له: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:18]. ويقول تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ﴾

(10) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد السلام ابن تيمية، (19/ 274).

[الإسراء:44]، وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله، في بيان انقسام هذه العبودية: «العبودية نوعان: عامة وخاصة، فالعبودية العامة عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله؛ برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم فهذه عبودية القهر والملك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم:93]؛ فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم، وأما النوع الثاني فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر، قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف:68]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزمر:17]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر:18] فالخلق كلهم عبيد ربوبيته، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته»[11].

ثانياً: أنّ الكون خاضع متذلل له لا يخرج عن قضائه وقدره ومشيئته، وبذا يكون سعي المؤمن منسجماً مع الكون فلا تشاكس بين سعيه للإعمار وبين فعل الكون؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83] لا استثناء لأحد في الخروج عنْ العبودية التامة الخالصة لله تعالى، وفي الحديث عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ، وَأَبِي سَلَمَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: (قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ، فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ)[12]، وإنّ جميع ما في الكون يشهد لله بالعبودية له، يقول ابن القيم رحمه الله: «ولو أردنا أنْ نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنّه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء وأنّه الذي لا أعظم منه ولا أكمل، ولا أبرّ ولا ألطف لعجزنا نحن الأولون والآخرون عن معرفة أدنى عُشر معشار ذلك»[13].

تمثلت صور طاعة الكون لله تعالى في طاعة وتسخير الكون للعبد المؤمن بأمر الله تعالى، استجابة لفعل الإعمار، وهدايةً لعباده المقتدين برسوله ﷺ؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: (أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، فَبَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: هَلَكَ المَالُ وَجَاعَ العِيَالُ، فَادْعُ اللهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنْزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ المَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ ﷺ، فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَمِنَ الغَدِ وَبَعْدَ الغَدِ، وَالَّذِي يَلِيهِ، حَتَّى الجُمُعَةِ الأُخْرَى، وَقَامَ ذَلِكَ الأَعْرَابِيُّ – أَوْ قَالَ: غَيْرُهُ – فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، تَهَدَّمَ البِنَاءُ

(11) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزية، (1/ 150).

(12) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، رقم (2885).

(13) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم الإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزية، (2/ 586).

وَغَرِقَ المَالُ، فَادْعُ اللهَّ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلَّا انْفَرَجَتْ، وَصَارَتِ المَدِينَةُ مِثْلَ الجَوْبَةِ، وَسَالَ الوَادِي قَنَاةُ شَهْرًا، وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلَّا حَدَّثَ بِالجَوْدِ)[14].

ثالثاً: ومن العبودية أنّ الله هو المتفرد بخلق الكون لا شريك له، واعتقاد المؤمن بذلك ينفي أي أطروحة أخرى تفسد فكره وفعله في الإعمار، كاضطراب الملحد؛ أنّ الكون وُجد صدفة أو أوجد نفسه بنفسه، يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:12]، ويمثل ايمان المؤمن بسنن الله تعالى في خلقه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:73]. وإنّ: «هذا أعظم دلالة وأوضحها على أنّ العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم، قدّره أحسن تقدير، ونظمه أحسن نظام» [15] فتكون الاستعانة به وحده لعمارة الكون ولا معين سواه، منهجاً ينير سبيل المؤمنين.

رابعاً: ومن العبودية الراسخة أنّ الله تعالى هو المتصرف في الكون لا شريك له في فعل ما يُريد؛ وتلك قوة المؤمن الحقة في دفعه وحثه لعمارة الكون؛ قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر:13]، وفي ذلك نفي لكل عقيدة فاسدة ومفسدة للأعمال، مضيعة لمعنى الحياة وقيمتها؛ يقول الله تعالى عنْ حال إبراهيم عليه السلام، وقد تأمل آيات الله الكونية: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:76-79].

خامساً: ومن عبوديّة الرؤية اليقين بأنّ علم الله تعالى محيط بكل ما يحدث في الكون؛ في كل زمان ومكان، لا تخفى عليه حافية؛ فلا يكترث المؤمن بادعاء المرجفين بما سيكون من غيب الكون من براكين وزلازل إلّا ما شهد عليه الله تعالى ورسوله أو بينه العلماء الثقات، سلامة في القلب ورسوخاً وثقة بما أخبر الوحي من الغيبيات الكوني، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج:70]، وسع علمه كل شيء قال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ

(14) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، رقم (905).

(15) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم الإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيّم الجوزية، (2/ 587).

أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:80]؛ فتمثل هذه المعتقدات التوحيدية أقوى دوافع العمران؛ فإنّ التعمير يبدأ من النّفس السليمة الاعتقاد، يعمّره بالإحسان، بتوجيه الطاقة الإيمانية وفق موجهات الوحي ودليل العقل وسوي الفطرة وصحيح التجربة والذوق السليم، فإنّ بناء وعمارة الكون ثمرة لعمارة النفوس بسلامة الاعتقاد.

- **المطلب الثاني: عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيدية الغائيّة للكون.**

معنى غائيّة الرؤية التوحيدية للكون أنّ الله تعالى خلق الكونَ لغاية وهدف ومصير، وأنّ المؤمن يعمِّر الكون طاعة لله تعالى وطلباً لمرضاته؛ غاية متوافقة مع غاية خلق الله تعالى للكون والإنسان، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر:85].

ومن حكمة خلق الله تعالى للكون تثبيت العقيدة في النفوس بالتأمل في الآيات الكونية الدالة على قدرة الله تعالى على البعث؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5].

ومن أسمى غايات التوحيد في خلق الكون إقامة الحجة على الناس أجمعين لتحقق التوحيد المفضي إلى طاعة الله وتحقيق الخلافة بعمارة الأرض؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:258].

ومن غايات الرؤية التوحيدية الكونية أيضاً تحرير الإنسان من عبودية الكواكب والنجوم والكونيات؛ إلى عبودية الله تعالى بتعمير الكون قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:75-79]، وعن زيد بن خالد الجهني، أنّه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلمّا انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس، فقال: (هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما مَنْ قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[16].

(16) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري،=

إنّ التوحيد يؤدي إلى وحدة الرؤية تجاه الكون ووحدة الموقف والغاية؛ يقول شيخ الإسلام ﵀: «فكل ما كان لأجل الغاية التي خلق لها الخلق كان محموداً عند الله، وهو الذي يبقى لصاحبه، وينفعه الله به، وهذه الأعمال هي الباقيات الصالحات»[17].

- **المطلب الثالث: عمارة الكون وفقاً للرؤية التوحيدية الشموليّة للكون.**

المراد بشمول الرؤية التوحيدية للكون أنّها جامعة لعالم الشهادة وعالم الغيب، المادي منه والروحي، وللدنيا والآخرة، وللاعتقاد والقول والعمل، ولكل زمان ومكان؛ وبناء على ذلك تكون عمارة الكون شاملة لكل تلك العوالم، بعيداً عن ضلال العقول ومزالق الأهواء والشهوات.

عِمارة جامعة، ومن عالم الشهادة رسوخ الجبال، وتدفق الأنهار، وطلوع الشمس منْ مشرقها، أمّا الغيبي فلا يمكن معرفته إلّا عنْ طريق النصوص الشرعيّة، وقد أخبر عنه الوحي؛ كالعرش، وطلوع الشمس من مغربها، وسجودها تحت العرش، السماوات العلى وما فيها وما فوقها من العرش والكرسي، وما كان في باطن الأرض، وما يحدث للكون في آخر الزمان، فعن أبي ذر ﵁ قال دخلت المسجد ورسول الله ﷺ جالس فلما غابت الشمس، قال: (يا أبا ذر هل تدر أين تذهب هذه؟) قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: (فإنها تذهب فتستأذن في السجود فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها)[18].

وإنْ بان عالم الشهادة وغاب عالم الغيب فكله بيد الله وحده، فلا تعني الشهادة غرور العلم ولا جهل الغيب لجوء العبد لغير الله، لذلك فهي عمارة حسية ومعنوية؛ حسيّة كعمارة المساجد والأراضي والمنازل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:18]، وفي حديث عثمان بن عفان ﵁، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من بنى لله مسجدا، بنى الله له مثله في الجنة)[19]، ومنها ما رواه أحمد ابن ماجه عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ، قال: (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان)[20].

وهي عمارة للحياة الدنيا بالعمل والآخرة بالثواب والأجر؛ عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق، فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأدخل الجنة)[21] عنْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ

=رقم (1004).

(17) الاستقامة، أحمد بن عبد السلام ابن تيمية، (ص284-285).

(18) صحيح مسلم، حديث رقم (159).

(19) سنن ابن ماجة، حديث رقم (741).

(20) سنن ابن ماجة، حديث رقم (807).

(21) صحيح مسلم، حديث رقم (4873).

أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ)[22]؛ فالعقيدة عمل مع سلامة الاعتقاد؛ عن المقدام ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: (مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ)[23] .

ومن العمارة المعنويّة عمارة النّفس بتزكيتها؛ فعمارتها أصل لعمارة الكون، قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:30]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فجعل سبحانه غض البصر، وحفظ الفرج، هو أقوى تزكية للنفس، وبيّن أنّ ترك الفواحش من زكاة النفوس؛ وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور: من الفواحش والظلم، والشرك والكذب وغير ذلك»[24].

- **المطلب الرابع: عمارة الكون وفقاً لوضوح وثبات الرؤية التوحديّة للكون.**

نظرة عقيدة التوحيد للكون وعمارته مبنية على الوضوح والثبات بعيداً عنْ شعوذة وخرافات وأساطير الأديان والفرق، أو غموض وتعقيد المذاهب الفلسفية الإلحادية، فالعقيدة الإسلامية توقيفية، تتأسس أصولها على الوحي المعصوم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:89]، وضوح وثبات بلا زيادة ولا نقصان، ولا تحريف ولا تبديل.

ومنْ وضوح الرؤية وثباتها اعتقاد أنّ وجود الكون دال على وجود الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت:53]. يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فبين سبحانه أنّه يُري الآيات المشهودة ليبين صدق الآيات المسموعة مع أنّ شهادته بالآيات المسموعة كافية»[25]، وأنّ وجود الله تعالى ليس قبله شيء كما بين سبحانه في قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:3]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ: قال النبي ﷺ: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر)[26].

ومن الوضوح بيان الغاية من الوجود وهي العبودية الخالصة المطلقة لله وحده، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:38-39]. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: (إِنَّ اللهَ جَلَّ وَعَلَا،

(22) مسند أحمد ابن حنبل، حديث رقم (494).

(23) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، رقم (1988).

(24) العبودية، ابن تيمية، (ص91).

(25) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (3/ 331-332).

(26) صحيح مسلم، حديث رقم (5017).

يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لَا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ)[27].

وضوح العلاقة مع الكون، وما يترتب عليها منْ فساد وصلاح الكون توحيداً أو شركاً مع الله تعالى، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:41-42]، ومنْ الصلاح في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود:52].

ومنْ أهم الوضوح إجابة العقيدة عنْ الأسئلة الكونيّة الكلية الملحة؛ مثل الإجابة عن السؤال الفطري عنْ بدء الكون، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30] سؤال مصيري لا يزال يُطرح في كل أوان، في صحيح مسلم: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا، فليقل: آمنت بالله)[28].

ومنْ الوضوح تحديد الموقف العقديّ عند الكوارث التغيرات الكونية العظيمة كالزلازل والبراكين والخسف والفيضانات، بأنّ الكون ملك لله تعالى لا شيء يتحرك بلا إذنه وعلمه وحكمته وعدله سبحانه، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ، إذا رأى مخيلة في السماء، أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك، فقال النبي ﷺ: (ما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ...﴾ [الأحقاف:24])[29].

وما يقع في الكون آيات وسنن ربانيّة لهداية الخلق لطاعة الله وإسلام الأمر كله إليه سبحانه، عَنْ قَيْسٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مَسْعُود، يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لاَ يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا، فَقُومُوا، فَصَلُّوا)[30]، والمؤمن بين رجاء رحمته وعفوه والخوف منْ غضبه وعذابه فلا ملجأ منه إلا إليه، عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكا حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم، قالت: وكان إذا رأى غيما أو ريحا عرف في وجهه، قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: (يا عائشة ما يؤمني أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب، فقالوا: هذا

(27) صحيح ابن حبان، حديث رقم (394).

(28) صحيح مسلم، حديث رقم (221).

(29) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، رقم (3059).

(30) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، رقم (1007).

عارض ممطرنا)[31].

- **المطلب الخامس: عمارة الكون وفقاً لموافقة الرؤية التوحيدية للعقل والفطرة.**

فلا يمكن أنْ يصطدم نظام الله في الكون القائم وحث المؤمن على عمارته مع العقل الصريح والفطرة السليمة، فليس في مظاهر الكون ما ينافي العلم الصحيح، ولا ما يناهض ما أثبته البرهان الساطع، وقام عليه الدليل، ومنها ما لا يمكن العلم به إلّا عنْ طريق النصوص الشرعيّة الثابتة.

تدعو عقيدة التوحيد العقل السليم إلى التفكر في الكون؛ فلا يجد مناصاً منْ الوصول للتوحيد الخالص لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:4]، وكل ما عمل العقل في الآيات الكونية بقوّة كان الإيمان قويّاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:190].

وموافقة الفطرة للسنن والآيات الكونية أصيلة في جوهرها، ذلك أنّ الفطرة والكون وما فيه خلق الله تعالى وصنعه، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:32] كثيرة هي المواقف التي تتجلى فيها الفطرة السليمة عن توحيد خالص كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:65]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم (ت:728هـ): «إن الإقرار والاعتراف بالخالق أمر فطري ضروري في نفوس الناس، وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة»[32] وعليه فإنّ العقل الصريح والفطرة السليمة يعملان في تعمير الكون والحياة في تناغم وانسجام تامين دون اضطراب أو غموض وتعقيد.

***

المبحث الثاني

عمارة الكون وفق الرؤية الإلحاديّة للكون

تنبني الرؤية الإلحاديّة على أصول ينظر البحث في قدرتها على عمارة الكون:- الأوّل: نفي الاعتقاد بوجود خالق للكون. الثاني: التفسير الماديّ للكون. الثالث: الكون قديمٌ بلا بداية وأبديٌّ بلا نهاية. الرابع: غياب الغاية منْ خلق الكون والحياة.

- **المطلب الأول: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في نفي الاعتقاد بوجود خالق للكون:**

الاعتقاد بأنّ هذا الكون ليس له خالق يدبِّر أمره يُؤدي إلى غياب قيمة للحياة الدنيا والآخرة، ومعاداة

(31) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، رقم (4568).

(32) مجموع الفتاوى، شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، (ص328).

الوحي والحرب على الله، وضياع القيم والفصائل وانسلاخ الإنسان من إنسانيته، وإنكار البعث والجزاء، وانتشار القلق والتمزق النفسي، وإنكار الرسالات، ما يُضيّع الدافعيّة لعمارة الأنفس بطاعة الله ومراقبته، وإنّ فساد النفوس أُسّ لفساد الكون؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم:41-42]، وعنْ قوم فرعون قال الله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال:52-54].

ويتبنى الإلحاد[33] أطروحات عنْ نشأة الكون أو وجوده، لدعم اعتقاد إنكار الخالق، فينسب خلق الوجود إمّا للطبيعة أو الجاذبية، أو الصُّدفة، أو أنّ الكون أوجد نفسه بنفسه، وهذه التفسيرات لا تؤسس رؤية ورسالة للإنسان تجعل عمارة الكون هدفاً سامياً وشاملاً لعمارة ماديّة ومعنويّة، وإنّما تؤسس للعبثية والعدمية واللامعنى في كل موجود، وانعدام الثوابت والمرجعيات وانتشار الشبهات، وسيادة مبدأ النفعية واللذة والشهوانية الحيوانية، عبادة غير الله تعالى كالطبيعة والشيطان والشهوات، وتقديس الإنسان وعقله، تأليه العلم والمادة، تأطير إنتاج العقول على إنكار الخالق في العلوم والمعارف وفصل الدين عنْ العلم سيادة الحيرة والاضطراب النفسيّ والفكريّ على النّفس الإنسانيّة.

يقول ستيفن هوكينج عنْ الفاعل للخلق؛ أيْ الجاذبية: «لأنّ هناك قانوناً مثل الجاذبيّة، فإنّ الكون يمكنه أنْ يخلق نفسه منْ لا شيء، والخلق التلقائي هو السبب في أنّ هناك شيئاً بدلاً منْ اللاشيء، فلماذا يكون الكون؟ ولماذا نوجد نحن، ليس منْ الضروري أنْ نستحضر إلهاً لإشعال فتيل الخلق ولضبط استمرار الكون»[34]؛ لذا فإنّ قانون الجاذبية يُنشي كوناً منْ لا شيء دون الحاجة لقوى خارجية عظمى، وبذا يُفسِّر وجود هذا الكون، يقول الله تعالى بالحجة العقلية المفسدة لهذا الزعم: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:35-36].

فمنْ أين جاءت قدرة الجاذبية؟ وهل قانونها سابق لوجود الكون؟ أمْ لاحق به؟ وهل كل ما في الكون خاضع لهذا القانون؟ ومنْ يُحرّكه ليُقدم فعلاً دقيقاً خارقاً؟ وهل هي عاقلة؟ إنّ غياب الإجابة عن هذه الأسئلة يبثُّ القلق

(33) هناك رؤية الحاديّة أخرى تسمى بـ«الربوبيون» ويزعمون أنّ الله خلق الكون ثمّ بثّ به قوانين كلية تضبط مساره، وبعد ذلك انعزل بشكل كاملٍ عنْ تدبيره، وهم يشتركون في نسبة إدارة الكون لهذه القوانين كالجاذبيّة والصدفة.

(34) انظر: التصميم العظيم إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى، ستيفن هوكينج، ليونارد ملودينوو، (ص216).

في معرفة علل الأشياء وقيمة وجودها، لذلك بيّن كثير من العلماء أنّها نظرية مشكوك فيها، وهذه الفوضى الفكرية لنْ تُؤسس لإعمار معنويّ أو ماديّ حقيقيّ ورساليّ وقيميّ، بمقابل الإيمان المقبول عقلاً وفطرةً، وقد أكدت الأبحاث العلمية حتميّة الإيمان بالله تعالى، بالتوافق الفطري التام: «إنّ النُّظم في العقل البشري التي تنشأ مبكراً تجعلنا نُولَدُ مؤمنين، وأنّ الإيمان بالآلهة أمرٌ محتومٌ ويشغل مساحة مرغوبة في طريقة تفكيرنا، وأنّ مفهوم الآلهة سهل الاستيعاب والقبول، مع نمو نُظم ذهنيّة معيّنة تنمو باكراً عند الأطفال تؤسس للإيمان الدينيّ»[35].

ثمّ سلك الإلحاد طريقاً آخر لتفسير خلق الكون عبر نظرية دارون «الانتخاب الطبيعي»؛ القادرة على تفسير خلق الكون يقول تشارلز دوكنز: «على الرغم من أنّ نظرية الانتخاب الطبيعي محصورة بتفسير العالم الحي فإنّ باستطاعتها أنْ ترفع مستوى الوعي للإدراك والقابلية للمقارنة عندنا مما يساعد على فهم الكون نفسه»[36] وتجتمع نظريتا التطور بنظرية الصُّدفة وتنشأ الحياة والأحياء، في صناعة بارعة غاية في دقة التصميم، حيث يُضيف دوكنز أنّ بديع صنع الصدفة قد يبدو غير مقبول رغم صوابه فيقول: «يبدأ التطور الداروني وتبدأ الحياة المعقدة بالظهور كنتيجة نهائية، ولكن الظهور التلقائي للجزئي القابل للتوارث بالصُّدفة يبدو للعديدين غير محتمل»[37] يمنحون الصُّدفة صفات ربوبيّة، وقد بانَ عجزها عنْ الإقناع العقليّ والفطريّ، ما يؤكد جوهر الرؤية الإلحاديّة القاصرة وأنّ العبثية التي لا تؤسس غاية أخلاقية قيميّة شاملة عنْ الكون وعمارته.

وفي إطار تثبيت فكرة الصُّدفة - إله الملحدين - يقول لورانس كراوس صاحب كتابه كون من لا شيء: «تنبثق يوميّاً أشياء جميلة وإعجازية فجأة من ندف ثلج في صباح شتوي بارد، إلى قوس قزح نابض بالحيوية والحياة بعد مطر صيفي في ظهيرة متأخرة، ومع ذلك لم يقترح أي شخص آخر غير المتدينين الأصوليين بأنّ كلّ وأيّ شيء من هذا القبيل مخلوق قصداً من قبل ذكاء إلهيّ بحب ومثابرة، لغاية ما في الحقيقة»[38].

إنّ جعل المصادفة والتطور وكون الشيء منْ لا شيء علةً لهذا الكون البديع لا شك يفقد منطقية الأشياء وعللها وحكمة وغاية وجودها، وأنّها أفكار بديلة لا تقوى على الثبات والقبول النفسيّ، وتشيع الفوضى والعبثية والذاتية والانعزال في كيان الإنسان ونظام الحياة، والحق أنّ كل ذلك يعني للناظر عشوائية الأقدار؛ والعشوائية لا تخلق شيئاً ولا يُبنى على قواعدها عمارة ماديّة أو معنويّة، لكنه الجحود؛ يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا

(35) فطريّة الإيمان، كيف أثبتت التجارب أنّ الأطفال يُولدون مؤمنين بالله؟، جوستن باريت، (ص32).

(36) وهم الإله، تشارلز دوكنز، (ص5، 6).

(37) وهم الإله، تشارلز دوكنز، (ص139).

(38) كون من لا شيء، لورانس براون، ترجمة: غادة الحلواني، (ص15-16).

وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:14]، وبالنظر في بديع صنع الله تعالى في الكون المتقن يتأكد وجود الحكمة والعلة والخالق سبحانه، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان:38-39].

ويؤسس الإلحاد قاعدة لا عقليّة رغم ادعاء عقلانية مقالاته، حيث يرى قبول ما لا يقبله عقل مثل وجود شيء من لا شيء، يقول لورانس براون: «من النظريات التي تشكل أساس الفيزياء المعاصرة أنّ الحصول على شيء من لا شيء ليس مشكلة، وبالفعل ربما يكون ضرورياً لكي يصبح الكون موجوداً أنْ يخرج شيء ما من لا شيء»[39] يُصِرّ الإلحاد أنّ ذلك ضروريٌّ رغم الاضطراب البيّن فيه، لأجل تفسير علة الوجود عبر العشوائية والفوضى الفكرية هذه.

يقول انتوني فلو أعظم الملحدين في زماننا - بعد أنْ كفر بالإلحاد وعاد إلى الإيمان - عنْ عجز الصُّدفة إله الملحدين: «ما قدمه اكتشاف الحمض النوويّ أوضَحَ التعقيد الشديد غير القابل للتصديق للترتيبات اللازمة لخلق حياة؛ وهو الأمر الذي يُوجب أنْ يكون هناك ذكاء خارق يجعل هذه العناصر المختلفة تعمل معاً، إنّه التعقيد الخارق لهذه العناصر والدقّة الهائلة في الطرق التي تتفاعل فيما بينها، واجتماع هذين الأمرين في الوقت المناسب بالصُّدفة هو ببساطة أمر مستحيل»[40].

إنّ مثل هذه المسوغات لإنكار الخالق سبحانه لا تقوى على الإقناع والثبات، ولن تؤسس خلفيّة فكريّة وعقديّة داعمة لرؤية متكاملة للإعمار، وما هي إلا تُرّهات لا قبول لها في العقل، كما أنّ الفطرة السويّة تأبى ذلك؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله: «إنّ الإقرار والاعتراف بالخالق أمر فطري ضروري في نفوس الناس، وإنْ كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة»[41].

- **المطلب الثاني: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في التفسير المادي للكون:**

وفق المبدأ الإلحاديّ فإنّه لا وجود إلّا للمادة، والكون في حقيقته ليس إلّا مادة، ثمّ يتطور المفهوم حتى يُصبغ على المادة خصائص الربوبيّة؛ وأنّ لها القدرة على الإيجاد، أمّا الإنسان فهو مادة، ويفسر الإلحاد كل حاجاته ورغباته ماديّاً، وينتج عن ذلك حصر المعرفة في المادة، وينتهي إلى إنكار الخالق، والرسالات وما جاءت به من خيري الدنيا والآخرة، وأنّ الإعمار ماديّ، نفعيّ شهوانيّ حيوانيّ.

وعليه يصف المادة بصفات الربوبيّة وأنّها: «متحركة

(39) كون من لا شيء، لورانس كراوس، (ص18).

(40) ليس هنالك إله كيف غيّر أشهَر ملحد رأيه؟، أنتوني فلو، ترجمة: صلاح الفضلي، (ص92-93).

(41) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد السلام أبن تيمية، (16/ 328).

بذاتها، وأنّ كل شيء يُفسَّر بالمادة والحركة، وأنّهما أزليتان أبديتان، خاضعتان لقوانين ضرورية هي خصائصهما، فليس العالم متروكًا للصُّدفة، ولا مُدَبَّرًا بإله، وكل الأَدلة على وجود الله منقوضة، ولا غائيّة في الطبيعة»[42].

فيتبنى الإلحاد التفسير الماديّ للكون ويدعم ذلك بنظريّة التطور، وأنّ نشأة الكون ماديّة بفعل الانتخاب الطبيعيّ؛ يقول ففي كتاب تاريخ موجز للزمان: «إنّ الكون قد تطور بأسلوب منتظم؛ نتوقع أنّ القدرات العقلية التي أتاحها لنا الانتخاب الطبيعيّ ستكون أيضاً صالحة في بحثنا عن نظرية كاملة موحدة، وهكذا فإنّها لنْ تؤدي بنا إلى الاستنتاجات الخطأ»[43] ولعل منْ المراد بالاستنتاج الخطأ اعتقاد وجود الخالق.

ثمّ يكتمل التفسير الماديّ للكون باعتماد التجريب طريقاً لتوكيد الرؤية الماديّة؛ فلا حقيقة لما لا يثبت بالتجربة المشاهدة: «وليس الارتياح الذي يستقيه الشخص من المعتقدات السابقة، أو الجمال أو الحسن اللذين يعزوهما إلى النماذج النظرية»[44].

هل كل شيء يقبل التجريب ويخضع له؟ «واجه العلماء مشكلة أصل المادة، ومالوا إلى الاعتقاد بأزليّة الكون، وبذلك تجنبوا بالجملة وإلى الأبد الحاجة إلى الخلق، فالمادة في الكون الأزليّ يمكنها التواجد إلى ما لا نهاية، وهكذا وضعوا جانباً مشكلة أصلها ومنشئها»[45].

فيقتصر التفكير على تحصيل الملذات الماديّة العاجلة، ويظلُّ عمل الملحد وتفكيره محصورين في نطاق ذلك، دون النظر لما وراء ذلك من العواقب، قال الله تعالى عنهم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود:15-16].

ويشير بول دافيز إلى سيطرة القلق على نفوس الملحدين لجحودهم بالخالق وقدرته لضعف المبررات المادية عن بث الراحة النفسية للملحدين فيقول: «يواجه العلماء الذين يصرون على أنّ الانفجار الكبير[46] هو بداية الخلق على افتراض أنّ عملية خارقة ما ضخّت المادة فقط في الكون، دون الأخرى المضادة، متحدية بذلك قوانين الفيزياء، ولم تستطع بأي حال المبررات المبهمة حول تعطل كل القوانين، عند حدوث هذا التفرّد أنْ تفعل الكثير لتخفف حدة الشعور بعدم الارتياح»[47].

(42) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، (ص203).

(43) تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء، استيفن هوكنج، (ص23).

(44) كون من لا شيء، لورانس براون، (ص21).

(45) الله والفيزياء الحديثة، بول دافيز، ترجمة: هالة العوري، (ص40).

(46) نظرية الانفجار الكبير أو العظيم هي التفسير الإجمالي الأكثر ترجيحاً للكيفية التي تطورت بها محتويات الكون مع مرور الزمن، انظر: علم الكونيات: مقدمة قصيرة جدًّا، بيتر كولز، (ص61).

(47) الله والفيزياء الحديثة، بول دافيز، (ص34).

وما فعله الماديون أنّهم جعلوا صفات الله تعالى للمادة، فكانت الإله منْ دون الله تعالى؛ تخلق ولا تفنى، ومنها خرج كل شيء، وقد وسعى الإلحاد إلى التعويض النفسي بالتركيز على العمران المادي، فبلغت المجتمعات الملحدة شأواً عظيماً في الإشباع المادي على حساب الجانب الروحي، ويبدو ذلك في نسب الاضطرابات النفسية والقلق ونسب الانتحار العالية، وهذا ما أكدته دراسات مستندة إلى مراجع الأمم المتحدة الموثقة[48].

يقول الله تعالى عن قصور علم هؤلاء بالكون وبالتالي عجزهم عن عِمارة الكون لجهلهم حكمة الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ۝٧ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم:7-8] عند ذلك يظل التحدي الأكبر للماديين عنْ قدرتهم على إدراك الغيب والواقع.

وينتج عن هذا القصور إغفال الجانب الروحيّ، فكان الإلحاد قرين الانتحار، تمرداً عن درب السكينة الكائن في العبودية لله تعالى، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ولن يستغنيَ القلبُ عن جميعِ المخلوقات إلاَّ بأنْ يكونَ الله هو مولاه الذي لا يَعبُد إلا إيَّاه، ولا يستعين إلاَّ به، ولا يتوكَّل إلا عليه، ولا يفرَح إلا بما يحبُّه ويرضاه، فكلَّما قوِيَ إخلاصُ دِينه لله، كَمُلتْ عبوديتُه لله واستغناؤه عنِ المخلوقات»[49] رؤية تميزت بالبحث عنْ الموت والفناء لنْ تُعنى بعمارة معنويّة أو ماديّة؛ فلا غاية ولا هدف ولا مصير معلوم ولا قيمة للحياة.

- **المطلب الثالث: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في أنّ الكون قديم بلا بداية وأبدي بلا نهاية:**

مراد الإلحاد منْ اعتقاد قِدم الكون نفي أنْ يكون للكون مُوجد من خارجه، وكذلك بقاؤه بلا انتهاء يعني أنّه يدير شؤونه بنفسه فلا تدخل من خارجه، فليس لوجوده فاعل لغاية وليس لمصيره نهاية: «ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إنّ نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده، ليس إلّا نتيجة لاجتماع ذرات جسْمِه عن طريق المصادفة»[50].

ويتواصل الجحود والإنكار حيث الانحراف إلى: «الاعتقاد بأزلية الكون، وبذلك تجنبوا بالجملة وإلى الأبد الحاجة إلى الخلق، فالمادة في الكون الأزلي يمكنها التواجد إلى ما لا نهاية، وهكذا وضعوا جانباً مشكلة أصلها ومنشئها»[51].

ولأجل اكتمال الرؤية الإلحاديّة يمنح الإلحاد صفات الربوبية للمادة، في نكران بيّن لحقائق العقل وقواعد

(48) انظر: https://2u.pw/gjk1Ors موسوعة إعجاز القرآن والسنة.

(49) العبوديّة، أحمد بن عبد السلام ابن تيمية، (ص102).

(50) المادية وحدها لا تكفي، ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم، وليام تبلوتشي، (ص57).

(51) الله والفيزياء الحديثة، بول دافيز، ترجمة هالة العوري، (ص40).

التفكير، ويلجأ الإلحاد أيضاً إلى خلق تفسيرات لموقف الفطرة السليمة الموافق لاعتقاد وجود الله تعالى؛ فيفسر الاعتقاد السليم بوجود خالق بأنّه اعتقاد فقط يبعث على الراحة وليس صواباً.

ومن عجب اعتماد الإلحاد المعاصر العشوائية والتلقائية سبباً للوجود؛ وفي ذلك إبطال للسببية، وفيه نشأ الكون نتيجة لحوادث تلقائية عشوائية، دون صانع، بفعل قوانين الطبيعة.

تلك الأسس التي يعتمدها الإلحاد لنْ تدعم تعميراً؛ مثل معاندة الحقائق العقلية، واعتماد العشوائية والتلقائية سبباً للوجود وغيرها منْ الانحرافات العقلية المريضة؛ ليس منْ شأنها البحث عنْ عمارة وخير للإنسان، ولكنها يمكن أنْ تبلغ بصاحبها إلى إلغاء الضمير والوازع على الخير، فضلاً عنْ مراقبة الله تعالى في السر والعلنْ وابتغاء مرضاته وثواب الآخرة بعمارة النفوس والوجود.

ومما يؤكده واقع الإلحاد كما يقول أنتوني فلو تحدي الأسئلة الوجوديّة: «وفي المقابل فإنّ الفلاسفة لم يقولوا سوى القليل عنْ الطبيعة وأصل الحياة، دون الإجابة عنْ السؤال الفلسفيّ: كيف يُمكن لكونٍ ذي مادة لا عقل لها أنْ تنتج كائنات لها نهايات جوهريّة ولها قدرات على التكاثر ومشفّرة كيميائياً؟»[52].

وبالوحي إجابة السؤال عنْ أصل الحياة والكون؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَاۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّۚ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:30]، والإشارة البيّنة عنْ نهاية الكون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥۚ وَعْدًا عَلَيْنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء:104] فإنّ كثيراً من المشاهد الكونية تؤكد أنّ: «العالم ليس أزليّاً بل هو حادث، وإنّه قابل للفناء، بل إنّه سائر إليه لا محالة، وأنّ العلم الحديث قدّم لنا العديد منْ الأدلة والقوانين العلميّة التي تؤكّد أنّ العالم بما فيه من أشياء يسير إلى نهاية محتومة»[53] فالفناء الكوني أمر حتم، فلا يبقى إلّا الله تعالى؛ يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: 88].

ويقول بول ديفيز[54] عن فقد إله الطبيعة القدرة على

(52) ليس هناك إله، كيف غير أشهر ملحد رأيه؟، انتوني فلو، (ص148).

(53) الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين، (ص27).

(54) بول تشارلز وليام دافيز عالم فيزياء بريطاني مشهور ولد في 1946م مؤلف ومقدم برامج، وحالياً أستاذ جامعي في جامعة ولاية أريزونا ومدير مركز بيوند «مركز المفاهيم الأساسية في العلم»، يشارك في معهد الدراسات الحكومية في جامعة شابمان في كاليفورنيا، كما تولى مناصب جامعية أخرى في جامعة كمبردج وجامعة لندن وجامعة نيوكاسل وجامعة أدليد وجامعة ما كوري، ومجال اهتماماته البحثية هو الفيزياء الكونية والنظرية الكمومية. انظر كتاب الاقتراب من الله، ترجمة منير شريف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010م، (ص347).

البيان: «من الواضح أنّ الكون لا يمكن أنْ يكون مفسِّراً بدون أنْ يمتلك القدرة على تفسير ذاته، ويتوجب على الكون أنْ يعلم وأنْ يفهم القوانين المسؤول عنها منْ أجل خلق هذه القوانين، كيف يمكن أنْ يكون الأمر شيئاً آخر غير هذا؟»[55] فإنّه من اليسير القول بجعل الكون يصمم ذاته ولكن كيف تمّ التصميم؟ وبأي قدرة؟ وما دليل ذلك وآلته؟ لذا فإنّ عجز إله الطبيعة مدعاة لعجز الإلحاد عنْ بناء رؤية سديدة جامعة للعمارة.

كل تلك المزاعم لتجنب الحاجة إلى الخلق، ولذا فإنّ الإلحاد جحود واستكبار بيّن، وتلبيس للحق بالباطل، فإنّ المادة تفنى والوجود كله، فلا قدرة ولا قوة لغير الله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:26-27]، والقول بأنّ المادة لا تفنى ولا تستحدث من العدم، مقولة خاطئة باطلة، وقد أثبت العلم اليوم أنّ بعض الموجودات في سبيلها للفناء والزوال فكيف تكون أبدية؟؟.

- **المطلب الرابع: عمارة الكون وفقاً للرؤية الإلحادية في نفي الغائية وغياب المعنى من خلق الكون:**

لا وجود لمعنى الحياة دون وجود هدف منْها، لذلك لمّا عجز الإلحاد عن فهم الحياة لم يجد لها هدفاً، فلم يعد للحياة معنى، ومقالة الإلحاد أنّه: «ليس وراء نشأة الإنسان غاية أو تدبير، إنّ نشأته وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده، ليس إلّا نتيجة لاجتماع ذرات جسمه عن طريق المصادفة، ولا تستطيع حماسته أو بطولته أو فكره أو شعوره أنْ تحول بينه وبين الموت»[56].

وعند غياب المعنى يعجز الإلحاد عنْ الإجابة عن سؤال الغاية لا يجد بُدّاً من البحث عن الخلاص في الانتحار، يقول ألبير كامو الفيلسوف الروائي الملحد ألبير كامو Albert Camus: «هناك مشكلة فلسفية هامة وحيدة، هي الانتحار، فالحُكمُ بأن الحياة تستحقُّ أن تُعاش، يسمو إلى منزلة الجواب على السؤال الأساسيّ للفلسفة»[57] فلمّا بَعُدَ الملحد عنْ الفطرة غاب عنْ الرؤية الحق، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:179].

ويقرُّ الإلحاد بقسوة الحياة بلا غاية ومعنى: «إنّ الكون هو ما عليه، سواء أحببنا أو لم نحب، لا يعتمد وجود خالق أو عدم وجوده على رغباتنا، وقد يبدو عالماً من دون خالق أو غاية قاسياً وبلا معنى، لكن هذا وحده لا يتطلب أنْ يوجد الله حقاً»[58].

وبقليل من النّظر كما في قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:

(55) الجائزة الكونية الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة، بول ديفيز، (ص342).

(56) المادية وحدها لا تكفي، وليام تبلوتشي، (ص57).

(57) أسطورة سيزيف، ألبير كامو، (ص11).

(58) كون من لا شيء، لورانس كراوس، (ص17).

20-21] دحض للصدفة إله الملحدين الذي لا يخلق شيئاً، فإنّ دقة الكائنات ووظائفها، وحركة الأجرام السماوية، والتصميم العظيم المتقن الغائي، والحق إنّ اعتقاد وجود الله تعالى يؤسس لفهم معنى للحياة وغاية الخلق، ويُؤصل لربط الأسباب بالمسببات، وأنّ لكل مفعول فاعل بداهة.

والرؤية التوحيدية لا يقتصر فيها معنى الحياة على الحياة الدنيا؛ ولكنها تجعل الحياة الآخرة هي الحياة الحقة، دون احتقار للحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:64] حياة حقيقية باقية وهذا موافق لم ترجو النفس الإنسانية منْ البقاء والسعادة.

لذا فإنّ الإلحاد لا يتوافق والطبيعة البشرية السويّة التي تقر وتطلب الاعتقاد السليم، يقول كتاب نفسيّة الإلحاد عن الملحدين: «إنّ افتقارهم إلى الاعتقاد أمر غير طبيعيّ، إنْ كان وصف حالة أنّها غير طبيعيّة يعني أنّها غير مدعومة جيّداً منْ قِبل الأنظمة المعرفيّة الطبيعيّة العاديّة للتمييز؛ فعند ذلك نقول نعم، إنّ الإلحاد أمر غير طبيعيّ»[59] فإنّ جوهر الطبيعة الإنسانية قائم على اعتقاد وجود الخالق الذي يدعم وجود الغاية منْ الحياة، إلّا أنّ قلب الملحد امتلأ بالشبهات فلنْ يصدر غير العبث؛ يقول ابن القيم رحمه الله: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته»[60].

وقد سادت العبثية جل الفلسفات الإلحادية كالوجودية والعدمية، فهذا سارتر يقول في روايته (الغثيان): «إنّ كلمة العبثية تولد الآن تحت قلمي... والواقع أنّ كلّ ما استطعت أن ألتقطه فيما بعد، تلخّص في هذه العبثية الأساسية»[61].

إنّ غاية الإلحاد ابتداع نظرية تشمل الحياة والكون والإنسان؛ قادرة على إزالة القناعات العقلية والفطرية بوجود الله تعالى، يقول الإلحاد: «وعلى كلٍ فَلَو اكتشفنا فعلا نظرية كاملة؛ فإنّه ينبغي بمرور الوقت أنْ تكون قابلة لأن يفهمها كل فرد بالمعنى الواسع، وليس فقط علماء معدودين، ولو وجدنا الإجابة عن ذلك فسيكون في ذلك الانتصار النهائي للعقل البشري»[62].

وتبدو بجلاء جهود الملحدين في حربهم على الإنسانية، حيث يقول ريتشارد دوكنز عن غاية كتابه: «وهم الإله» متفائلاً: «إنْ كان فعل هذا الكتاب كما أتصوره أنا؛ فإنّ القارئ المتدين الذي يفتح هذا الكتاب سينهيه وقد أصبح ملحدا»[63].

وإنّه من العسير تفسير أيّ نسق في الحياة والأحياء

(59) نفسيّة الإلحاد، إيمان فاقد الأب، بول سي فيتز، (ص246).

(60) مفتاح دار السعادة، الإمام ابن القيم، (1/ 443).

(61) انظر: رواية الغثيان، جان بول لسارتر، (ص182-183).

(62) تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء، استيفن هوكنج، (ص150-151).

(63) وهم الإله، ريتشارد دوكنز، (ص9).

بعيدا عن النظام الغائي، وليس مِنْ استقامة العقل وكماله وجود الموجودات بلا غاية ومعنى وهدف، بالاعتماد على إله الطبيعة، وعلى فرض التسليم بنظرية الارتقاء والتطور فإنّه منْ العسير فهم ذلك دون أنْ تُفسر وجود العلّة والغاية، إنّها عقول وقلوب أُبعدت عن درب الصراط فلن ترى غير العمى؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:46].

فالإلحاد أبعدُ ما يكون عنْ العمارة الحقّة، فهو فساد في القول والفعل، ولا يجتمع الفساد والتعمير، أساسه الهوى واتباع الشهوات، لا يقر بالله تعالى رباً فلا خلافة له في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

وبالجملة فإنّ الإلحاد لا يُصْلح الحياة ولا يصلُح لها؛ لأنّه لا يجعل للحياة قيمة ومعنىً وهدفاً، ويوصل إلى العدمية أو عبثية الحياة، ويجعل الإنسان مجرد مجموعة عناصر كيميائية أو نتاج صدفة أو عرضاً في الطبيعة فتغيب هويّته ومعناه، وقد عجز الإلحاد عن الإجابة عن الأسئلة المصيرية من أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ وما المصير؟ فناء أم عود وخلود؟، وقد جعل الإلحاد الحياة ماديّة وبذا تختل نظرة الإنسان في الحياة، وقد أخفق الإلحاد في صوغ نظام أخلاقي يحفظ كرامة الإنسان، حتى أدَّى غياب المعنى إلى غياب الغاية وغيابها يقود الملحد للتخلص من الحياة، وليس البحث عنْ تعميرها، إنّما يعمر الحياة منْ رأى الحق وبلغته هداية الله تعالى.

***

الخاتمة

وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:

أهم النتائج:

1- مفهوم عمارة الكون في الرؤية التوحيديّة مفهوم شامل للعمارة الماديّة والمعنويّة، بخلاف الرؤية الإلحادية التي تحصرها في المادي فقط، ولا يخفى اضطراب الاتجاهات الماديّة في تفسيرهم للحياة أنّهم لم يطّردوا على تفسيرٍ موحدٍ لها، حيال أصل الكون والحياة؛ فمنهم منْ يحيله للمادة بإطلاق، ومنهم منْ يقصره على تحقيق الذات البشرية، ومنهم منْ يرهنه بتحقيق المصالح البرجماتية ...الخ.

2- تفرد الرؤية التوحيدية في تأسيس عمارة الكون على العبودية، والغائية، والشمول، والوضوح، والثبات، وموافقتها للعقل الصحيح والفطرة السليمة.

3- قيام الرؤية التوحيديّة على هذه المنطلقات يحقق الغاية منْ وجود الموجودات، ويجعل عمارة الكون راسخة وباقية وبيّنة موافقة لوجود الإنسان ربانية في مصدرها وغايتها.

4- يتبنى الإلحاد النظريات الفلسفيّة والماديّة لأجل تأكيد خلق الكون بلا خالق، ولكنّها عاجزة عن الثبات والقبول العقليّ والفطريّ ولا تؤسس لرؤية في عمارة الكون.

5- تجمع الرؤية التوحيديّة بين العمل لعمارة الحياة

الدنيا وجعل العمارة سبيلاً لمرضاة الله تعالى، ولا يمنع ذلك منْ طلب الثواب في الآخرة في الحياة الحقيقية.

6- نفي الإلحاد أنْ يكون للكون خالق، هو أُسّ البلايا والمهلكات لحياة الإنسانية، أولها فقدان قيمة وغاية للوجود، والبعد عن التفسير الصحيح للظواهر الكونية، تفسيراً يوصل لمعرفة الله تعالى وعبادته.

7- التفسير الماديّ للكون اعتقاد يُفسد النظرة الشمولية للكونية للعالمين، الشهادة والغيب، وينتهي بإنكار وجود الله تعالى، ويحصر العمارة في البعد المادي فقط، ويختل معنى الإنسان بالتركيز على كونه مادة فقط.

8- اعتقاد قِدم الكون وأنّه بلا بداية وأبديٌّ بلا نهاية، جحود وإنكار وعشوائية أضلت الرؤية عن الغاية من وجود الكون ومصيره ورجاء الحياة الآخرة، وتمكين للرؤية الماديّة الآنيّة الضيقة والقاصرة عن الحياة.

9- نفي الغائية وغياب المعنى من خلق الكون والحياة في الإلحاد سببٌ في فقدان معنى وقيمة وغاية ودافع الإعمار الكوني.

10- اقتران الإلحاد في كل مباحثه بالعبثية والعدمية والعشوائية وتأليه الطبيعة والماديّة والذرائعية لا يؤسس لقناعة علميّة أو عقلية أو فطريّة راسخة ومقنعة للإنسانية.

أهم التوصيات:

1- حث المراكز البحثية والدعوية على إنتاج مزيد من البحوث النقدية في مسألة الإلحاد، في الأبعاد المعرفية كلها.

2- ضرورة احتواء مناهج التعليم في المراحل المختلفة على نقض شبهات الإلحاد التي قد تمثل مدخلاً للميل إلى قبول الإلحاد.

3- زيادة وعي المجتمع المسلم بما يحمله الإلحاد من كفر بالله تعالى والرسالات السماوية وأنّه قرين الفساد وسبيل الهلاك للإنسانية جمعاء وأمة الإسلام خاصة.

4- تأسيس مواقع إلكترونية فاعلة ومتاحة للرد على مباحث الإلحاد، ومحاورة الشباب تحصيناً للمجتمعات والأسر المسلمة.

***

قائمة المصادر والمراجع

الاستقامة. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: محمد رشاد سالم، ط2، الرياض: إدارة الثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1411هـ-1991م.

أسطورة سيزيف. كامو، ألبير. نقله إلى العربية: أنيس زكي حسن. د.ط، بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت.

تاريخ الفلسفة الحديثة. كرم، يوسف. د.ط، المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، 2012م.

تاريخ موجز للزمان من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء. هوكنج، استيفن. د.ط، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة جدران المعرفة، 2006م.

التصميم العظيم إجابات جديدة على أسئلة الكون الكبرى. هوكينج، ستيفن. ترجمة: أيمن أحمد عياد، ط1، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، 2013م.

الثقوب السوداء. هوكنج، ستيفن. ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي، ط1،، أبو ظبي: المجمع الثقافي، 1995م.

جامع البيان عن تأويل آي القرآن. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، القاهرة: هجر للطباعة والنشر، 1422هـ-2001م.

الجائزة الكونية الكبرى، لماذا الكون مناسب للحياة. ديفيز، بول. ترجمة: د. سعد الدين خرفان، د.ط، دمشق: الهيئة العامة السوريّة للكتاب، 2011م.

رواية الغثيان. سارتر، جان بول. ترجمة: سهل ادريس، د.ط، د.م: د.ن، 1938م.

سنن ابن ماجة. القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعادل مرشد، ومحمَّد كامل قره بللي، وعَبد اللّطيف حرز الله، ط1، د.م: دار الرسالة العالمية، 1430هـ - 2009م.

صحيح البخاري. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، تحقيق: مصطفى ديب البغا، ط5، دمشق: دار ابن كثير، دار اليمامة، 1414 هـ - 1993م.

صحيح مسلم. النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، د.ط، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، 1374هـ - 1955م.

العبودية. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. تحقيق: زهير الشاويش، ومحمد نار الدين الألباني، ط7، بيروت: د.ن، 1426هـ - 2005م.

علم الكونيات: مقدمة قصيرة جدًّا. كولز، بيتر، ترجمة: محمد فتحي خضر، د.ط، د.م: مؤسسة هنداوي، 2014م.

فطريّة الإيمان، كيف أثبتت التجارب أنّ الأطفال يُولدون مؤمنين بالله؟. باريت، جوستن، د.ط، د.م: د.ن، د.ت.

كون من لا شيء. براون، لورانس. ترجمة: غادة الحلواني، ط1، القاهرة: منشورات الرمل، 2015م.

الله والفيزياء الحديثة. دافيز، بول. ترجمة: هالة العوري، ط1، دمشق: مكتبة مؤمن قريش، 2013م.

ليس هنالك إله كيف غيّر أشهَر ملحد رأيه؟. فلو، انتوني. ترجمة: صلاح الفضلي، ط1، الكويت: د.ن، 1436هـ - 2015م.

المادية وحدها لا تكفي. تبلوتشي، وليام. ضمن كتاب الله يتجلى في عصر العلم، د.ط، د.م: د.ن، د.ت.

مجموع الفتاوى. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم. ط1، الجزء 16، الرياض: مطبعة الرياض، 1381هـ.

مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب. تحقيق: محمود حامد الفقي. ط2، الرياض: دار عطاءات العلم؛ بيروت: دار ابن حزم، 1441هـ - 2019م.

مسند أحمد ابن حنبل. أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط1، القاهرة: دار الحديث، 1416هـ - 1995م.

معجم التعريفات. الجرجاني، محمد السيد الشريف. تحقيق: محمد صديق المنشاوي. د.ط، القاهرة: دار الفضيلة، د.ت.

المعجم الفلسفي. صليبا، جميل. د.ط، بيروت: دار الكتاب اللبناني، د.ت.

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم الإرادة. ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب. تحقيق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد، ط3، الرياض: دار عطاءات العلم؛ بيروت: دار ابن حزم، 1440هـ - 2019م.

مفردات ألفاظ القرآن. الأصفهاني، الراغب. تحقيق: صنوان عدنان داوودي. ط4، دمشق: دار القلم، 1430هـ - 2009م.

نفسية الإلحاد. فيتز، بول سي. ترجمة: مركز دلائل. ط2، الرياض: الدار العربية للطباعة والنشر، 2013م.

وهم الإله. دوكنز، تشارلز. ترجمة: بسام البغدادي، ط2، د.م: د.ن، 2009م.

***